# فتاة .. وثورة .. وشعر ..

بقلم ليلى صباغ

سمعت عنها ممن حولي رثاءة بكاءة تقول الشعر الرصين وتذرف الدمع السخين . سمعت عنها دون ان اقرأ لها سوى نتف من شعر مبعثرة هنا وهناك كانت بين بين . وشاءت الظروف ان تجمعني بها منذ عام وجها لوجه في دمشق : فبدت لي فتاة عادية في منتصف العقد الثالث من العمر في قامتها توسط ، وفي جسمها امتلاء ، وعلى وجهها الاسمر الصافي لمحات من شباب ، ومسحة من كآبة ، وخطفة من شحوب ، وفي ثنايا فمها ظلال من بسمة وكبت ، وفي عينيها العسليتين الجميلتين اللتين تكتسحان وجهها نعس واحلام وطيوف . ويترجرج في روحها الساكنة قلق صامت واستعار مكبوح : تصمت بنقاء وتتكلم بصفاء وكأنها تهمس وسوسات ذاتها الى من حولها انما بتمهل وحياء . وكان طبيعيا والجلسة شعرية ، وهي المحتفى بها ان تنطلق شعرا من اناها ... فاذا بصوتها دفء وتهدج ورنم ، واذا بنظمها حنين وانين ونغم . وشعرت وهي تبعث بالكلمات روحا ومعنى من فيها انها تخرجها من اغوار عميقة خصبة ، ككلمها ، وكأني بها ذاتها . واحسست عندها انها ليست الفتاة العادية التي طالعتني والتي كنت اظن انها تشغل بقاءها بأن تحوم حوله افقا ، وتزينه شعرا باهتا .. وآمنت انها شاعرة : اذ تعمق في خفايا النفس ولجج العاطفة حتى يذوب شعرها من لفظ يروى وفكرة تستوعب الى حس يشعر ولذة تطفى ، وانه يسري من روحها اللائبة الى الارواح حولها سريان شعلة من لهب تضيء وتحرق ، ثم تفنى في جمال نفسي منتشى .

وعدت الى ديوانها « وحدي مع الايام » الذي صدر منذ اعوام ، استزيده عنها . واذا بشاعرتي فدوى طوقان تبرز لي من خلاله لا فتاة تجيد فن الرثاء كما حدثتني عنها كثيرات من السيدات ، ولا امرأة تنجرف وراء الرمزية والغموض ، كما عرفها كثير من الادباء والرجال ، وانما نغم حياتي صادح ضال فيه ثورة صاخبة ، وبكاء جاف ينطلق متصاعدا من وراء جدران مجتمع آسر ، لينسجم ويلتحم بعد ان يتخطى اسلاكه الشائكة مع لحن الكون . انه دموعها ولكنها من تلك التي قال عنها الشابي:

فمن المدامع ما تدفع جارفا حسك الحياه
يرمي لهاوية الوجود بكل اشواك الطفاه

واختفت عن ناظري صورة الخنساء التي ربطتها بها ليتماسك ديوانها في ذهني تماسكا غريبا وملحا بكتاب كان قد صدر في الوقت نفسه تقريبا ، وهز الاوساط الادبية العالمية وتداولته دور الكتب بالترجمة والنشر ، وسطرته هو الاخر نفسية امرأة ، واطلقت عليه اسم « تخطيت الاسوار » فقد قصت علينا فيه الكاتبة « مونيكا بالدوين » محاولتها ابان الحرب العالمية الاولى الانخراط في سلك الرهبنة ، وكيف اندمجت فعلا في نظام ديري قاس وهي في ربيع العمر ، وفورة الجمال والارتباط بالدنيا ... وتدخل الكاتبة في تفصيل اسرار الرهبنة والتقشف بروح ارضية وحب للحياة عميق ، وتصل بنا في النهاية الى ان ارتباطها بالدنيا واستغراقها في جمالها ، وتشبثها بالحرية والانطلاق دفعتها ان تتحلل بعد ثمانية عشر عاما من حياة ديرية مغلقة ، من نذورها وان تقفز فوق اسوار الدير لتعود الى ارض الانسان الخاطىء ، ارض الحياة والبشر . .

وهكذا بدت لي شاعرتنا من طيات ديوانها .. وفي الواقع لا فدوى طوقان بلحمها ودمها ، وانما جيل من المرأة تجسد فيها ، جيل فيه شباب وجمال وحب كان يتعشق الحياة بمعانيها الفوارة ، ويتوق الى الانغمار في لججها الصاخبة ، ويحن الى الانطلاق في تشعباتها الشتى ، ويسجن وراء الاسوار .. لا بنزوة من نزواته كما فعلت مونيكا بالدوين ، وانما بارادة من كانت له الارادة آنذاك ... ولم تكن الاسوار التي احتجزت وراءها اسوارا مقدسة من الله وانما اسوارا ادعى تقديسها مجتمع بشري ، مهلهل عتيق سادته فردية الرجل المسلم الشرقي وجهله وكما ان الحصون الديرية المقدسة التي كان يرن صوت الله في جنباتها لم تتمكن من خنق صيحة الحياة البشرية والتلهف عليها في نفس مونيكا فان الاسوار التي نسجها مجتمعنا السابق بتقاليده الكبتية ومفاهيمه المغلقة وطوق بها جيل المرأة ذاك ، جيل فدوى طوقان ، لم تتمكن من اطفاء جذوة التعاطف الكوني ، والتعلق بمعاني الحياة في نفس ذاك الجيل وكما ان مونيكا أثارت من حولها اذ كشفت للعالم للمرة الاولى ، اسرارا كان يتوق اليها ، فان فدوى طوقان قد استثارت مجتمعنا المغلق بأن طرحت في ديوانها عليه اسرار عالم المرأة الانساني المتغلغل الذي يتلهف على اعماق الحياة لا على سطوحها .

وحننت بعد قراءة ديوانها ان اعرف بها لا لانها عبقرية من عبقريات الزمان ، فهذا اترك الحكم فيه الى اساطين الادب ، ولا لانني اريد ان اثبت عن طريقها ـ كما يفعل الكثيرون ـ مساواة المرأة بالرجل في ميدان الابتكار والابداع والنبوغ ، فالموضوع غدا سخيفا ومن سقط المتاع والبديهيات لا تحتاج الى اثبات ، وانما لاعرض مجهولا ونمطا من الحياة قام في ماضينا القريب ولا يزال يقوم في وقتنا الحاضر ، وقتل امكانياتنا الكامنة ، واعماق نضوجنا كأمة .. ولاطرح عليكم جمالا شعريا اثيريا بعدنا في واقعنا الحديدي ـ الناري ـ الدموي عن التحسس به . واستحثتني ابياتها في قصيدتها « الى مصر » التي تقول فيها :

يا ليتني يا مصر نجم في سمائك يخفق
يا ليتني لفز ابو الهول احتواه مغلق
تهوي وتنسحق الدهور مواكبا
وانا هنا

صدر هذا الشهر عن « دار الآداب » في بيروت ديوان « وجدتها » للشاعرة الفلسطينية الكبيرة الآنسة فدوى طوقان ، وهو يضم آخر منظوماتها الرائعة . ويسر « الآداب » ان تنشر بهذه المناسبة هذه الدراسة الطيبة عن شاعرتنا الكبيرة من خلال شعرها الماضي ، مما يلقي اضواء كاشفة على ديوانها الجديد .

بعض خفي من كيانك لست ادرك ما انا

على فك رموز هذا اللغز ، واكتناه تلك الجدران المادية والمعنوية التي فرضت عليها الحياة بين ظهرانيها فصخبت وضجت ثم انفلتت شاعرة ثائرة تصدح ، وتهدم وتبني . وشاءت الظروف للمرة الثانية ان اجتمع بها في موطنها نابلس ، وان تهمس لي ببعض من ذاتها . واذا بحياتها كحياة جيلها باكمله :

قصيدة فذة منبعها الحس ونيرانه

وحلم محير تائه من قلق اللهفة الوانه

حياتها ـ كحياتهن ـ بحر نأى غوره وان بدت للعين شطآنه

فقد طالعت فدوى الوجود بوجودها كأنثى في مدينة نابلس في ١٩١٩ . ونابلس هذه مدينة عربية صغيرة في الوطن السليب . احتضنها سفحا جبلين وبثا في حناياها الماء والخضرة ، وحمياها من كل اثر خارجي او دخيل اجنبي ، فانكفأت على نفسها تجتر عزلتها وتحافظ على قدمها . والتفت اهلوها كشأن المدن الصغيرة المغلقة يتسقطون اخبار بعضهم بعضا ينتقدون حركات افرادهم فردا فردا حتى قال المرحوم الشاعر ابراهيم فيها قبل ان يتاح للصحف نشرها » .

طوقان شقيق فدوى : « لا ضرورة لجريدة في نابلس ، لان الاخبار تنتشر

ولا يمكنني الجزم فيما اذا كان الحظ قد حالف فدوى في انها ولدت لآل طوقان او لم يحالفها : فآل طوقان عشيرة عربية مسلحة . اقطاعية غنية . تتمثل التقاليد في ذاتها وتشيعها على من حولها . فهي ستكون اذن طوقا حديديا للعبقريات المنطلقة حتى ولو كانت هذه العبقريات مندفقة من احشائها ومتمثلة في رجال ، فكيف بالنساء .. ولكن ربما تغبط فدوى لولادتها لآل طوقان ، لا لغنى مادي يوفرونه لها ، وانما لانهم تمثلوا الحركة القومية العربية الحديثة في اعماق اعماقهم ونقلوها الى ولدهم زاخرة مليئة . وهكذا تكون فدوى قد رضعت منذ طفولتها لبان القيود التزمتية بأشد صورها وشرقت بمفاهيم العروبة الحية بأعمق خلجها .

وقد اخذت فدوى تتحسس ما حولها من دنيا ، ومن حياة في منزل آل طوقان المنتصب كالحصن الاقطاعي على حفة جبل « جرزيم » ، والمطل من طرفه الآخر على سوق نابلس وقلبها الواهي الوجيب . وهو منزل واسع كمنال الارستقراطيين في دمشق منذ ربع قرن : مدخل ضيق يصعد اليه بسلم ، ثم سلم وسع ، ثم ساحات منبسطة وغرف عدة يصعد اليها بادراج بعضها فسيح واخر ملتو كحياتنا الاجتماعية السابقة .. وقد تلقفت فدوى حياتها من اب هو « عبد الفتاح طوقان » متعصب لاسلامه وعروبته ، متشبث بتقاليد المجتمع ، سمح مزامل لاولاده الذكور، مقيد بمفاهيمه عن الحجاب والشرف مع اولاده الاناث ، مؤمن في قرارة نفسه بقيمة الرجل في الحياة دون المرأة شأن رجل ذلك الزمان ، وهذا الزمان ... يرغب من الحياة العمل الدؤوب ، والسلطة ، وكثرة الولد . اما العمل فقد اندفع نحو مصيفته يديرها بحزم ، واما السلطة فقد توفرت له على عائلته ، واما الولد فقد حباه الله منه عشرة ستة من الذكور واربعا من الاناث وكانت شاعرتنا السابعة في التعداد .

واذا كان الوالد يبدو في معظم الاحيان لفدوى صامتا متعاليا كما ارادت نفسية ذلك العصر وعادة المجتمع،فان الوالدةكانت على عكس ذلك:فهيجميلة ممراح لم يفقدها الولد المتواصل روح دعابتها وفكاهتها . واذا كان للجو الاول الذي يتفتح عليه الطفل أثره في حياته فيما بعد ، فقد ترك حصن آل طوقان بسعته المكانية وفراغه الروحي وبشره المتنوع ـ بالنسبة لفدوى ـ دمغة سوداء على نفس الطفلة فدوى لم تزلها ولا ضحكات الام ولا ملء البقاء . فمنذ ان ناغت الحياة فيه شعرت بالانقباض ، وزاد من انقباضها مرض الملاريا الذي حط من قواها ، واذوى عودها ، ومحا الجمال من عينيها ووجهها ، وارهف من حساسية اعصابها ، فلم تنطلق للعب مع لداتها رغم ان الساحات فسيحة والاطفال كثيرون : فالى جانب اخوتها العداد اولاد عمومتها الذين كانوا يشاطرونهم الحياة في المنزل . واكثر ما كان يلويها على ذاتها عدم احساسها بحدب يغدق عليها ممن حولها ، حتى ولا مسحة يد على شعرها او دغدغة انامل لخدها . فالام ولود لن تلتفت الى فردية اطفالها الا بمقدار ، ولا تتحسس كوامن انعطافاتهم . والاب في جوه ، وفدوى انثى ، وليست بالطفلة المثيرة شكلا ومرحا بحيث تجذب نحوها حنان الاخوة والاقرباء .. فقد شعرت وهي دون السابعة انها منبوذة وسط العائلة الضخمة ، وكم بكت وتحرقت وهي ترى اختها الجميلة التي تصغرها بسنتين تتلقفها الايدي وترن لها الضحكات وهي في الزوايا متلكئة مهملة . وهكذا انكمشت على نفسها وانصرفت الى عزلتها تجوب ارجاء هذا القصر الفسيح بخطى لاهثة وهي :

خيال شاحب لم ترحم الدنيا ذبوله

خيال طفولة لم تدر ما مرح الطفولة

وكم كانت تستغرق في خيالاتها واوهامها فتبني لنفسها عالما حرمته في الواقع ، وتضع نفسها مكان ابنة عم لها كانت تغدق عليها الهدايا والهبات، وتحاط بكل افانين الحب والعطف وتتمنى لو تبادلها ابنة لخالتها العاقر واحدا بله يوما واحدا .. وترجو مرة اخرى لو كانت ابنة لخالتها العاقر التي ربما كانت ستوسعها حبا وعطفا لانها محرومة من الولد . وهكذا بين ثلاثين فردا كانت فدوى تشعر بالغربة ، وبظمأ مرير الى الحب والتحنان والحدب . وقد صورت ذاتها هذه في شعرها قائلة :

وأرنو ...

لطيف طفولتي الفانيه

بأيامها المرة القاسيه

وذا انا ـ يا نار شيء صغير

يفتش عن نبع حب كبير

سدى ، ويظل لقى مهملا

فيمضي الى رؤاه وفي افقهن يطير ...

وفي سن السابعة ارسلت فدوى الى المدرسة . فلا ضير من التعليم الاولي للبنات . وانكبت الطفلة على الدراسة تعوض ما فاتها من حب وعطف ، وتغدق على كتبها ما يملأ حناياها منهما ، وتحاول ان تثبت في المدرسة اقدامها التي فشلت في تثبيتها في البيت . وبزت زميلاتها في اللغة العربية . وكان يستهوي معلمتها منها قراءتها الشعر . فقد كانت على طفولتها توقعه بنغم غريب ، وتعيش فيه وتتلمس ذاتها عبر معانيه . ولكن انعطاف فدوى نحو مجتمعها المدرسي لم يصرف طاقات من عواطفها او ينسها انعزالها في البيت ، فقد انتقلت من عام الى اخر وهي تحس بعكر في الجو العاطفي المنزلي ، وبظمأ للعاطفة والتدليل يزداد الحاحا مع نموها الجسمي . وفي سن العاشرة حدث تحول خطير في حياتها : فقد ذهبت خفية مع اخ يكبرها الى مفرق الطريق لاستقبال اخ عائد من الكلية في بيروت . وكان اخوها هذا هو الشاعر العربي المعاصر المرحوم ابراهيم طوقان . وتلقاها هذا الاخ الكبير بالحضن والتقبيل ، ووضعها الى جنبه وهو في طريقه الى المنزل ، وكان يربت على شعرها ويحدثها كانسان .

وشعرت لاول مرة ـ وربما لاخر مرة ـ ان عاطفتها قد تركزت ، وان روحها العطشى قد ارتوت ، وان دنياها لن تدور الا في فلك ابراهيم . وشرعت الطفلة الحانية تلتصق بالشقيق : فكم كانت تجلس امامه ساعات وساعات صامتة كالطيف تستمع بنشوة قدسية لاهازيجه الشعرية ... واخذت تعشق الشعر لا لان روحها تذوب فيه فقط ولكن لان ابراهيم يحب الشعر ويقوله . وانصرفت بكل ما في قلبها الصغير من اندفاع وعاطفة لخدمته .. وهكذا انفلتت من اسر عواطفها الخانقة السابقة ، وانطلقت والحب الاخوي المزهر في قلبها يملأ جوانحها ويسير خطاها ، تعيش مع الحياة المشرقة : وتغيرت الوان الطبيعة في عينيها ، واكتست جمالا اخاذا . فأخذت تتنقل بين مروج وسفوح تروي غليلها للحرية ، وتعب من الجمال حولها ، وتعانق بطفولتها كل جزئية فيه . واقتربت دراستها من النهاية وهي خيال مشبوب ،

وروح تفتح للطبيعة ، للطلاقة ، للجمال
روح شفيق رقته لطافة الجو النضير
ومفاتن السفح الغني وخضرة الوادي الشجير
روح رهيف الحس ، متقد العواطف والشعور

يهوى الجمال ، يعب لا يروى من الفيض الكبير

وكان شبابها قد اطل على عمرها مع انسياح خيالها وزايلها مرض الملاريا فامتلأ جسمها ، واحمرت وجنتاها ولمعت عيناها ، وفاضتا بتطلعات الصبا واماني الشباب . وشرعت تطل على الوجود بتلهف واكتناه للحياة . وافاض جمال يفوعتها على نفسها ثقة بذاتها ، فارات في اعماقها لو ترشف كأس الدنيا حتى سلافتها . ولعل الثورة الكامنة في اغوارها التي ولدها كبت متواصل وعطف ضنين اخذت تشرئب جامحة من مقلتيها ... وقررت العائلة امام هذا الصبا المتفجر، والتطلع العميق نحو مكنونات الحياة ، وأمام تقاليد الاسرة ولفط المجتمع الضيق ان تمنع ابنة الثالثة عشرة المتحجبة من التجول في الطرقات او بمعنى اخر من اتمام دراستها : ففي ثورة العينين خطر ، وفي قراءة الشعر للانثى ربما عار مرتقب .. فلتعش في الحصن الفسيح كما يعيش كثير من لداتها ، ولتتنقل في رحباته ضمن الجدران المرتفعة ، ولتنتظر فيه زوجا مرتقبا يحملها الى حياة حصينة وولد .

ورضخت وابراهيم بعيد عنها ، والقيد يدمي قلبها ، والثورة في النفس في بدئها .. رضخت على مضض لتستمع بحرقة تأكل حناياها الى الاحاديث النسوية البالية والتخرصات العائلية ، ولتشعر بنقمة ممن حولها ولنفرض نقمتها على من حولها : فعالمها غير عالمهم : عالم فيه مثل ورؤى ، فيه طبيعة وانطلاق ، فيه تحقيق للوجود.. عالمها عالم حركة يبتلع سكونهم وهمودهم ... وكانت تتطاول خفية وراء النوافذ لترى كثيرا من زميلاتها من خلفها وقد تأبطن كتبهن ، واتجهن الى المدرسة متضاحكات تحت حجبهن ، وترن في اعماقها مع هذه الضحكات موسيقى الحياة .. وثورة الحقد ... وكانت تقطع وقتها الطويل المتباطيء بقراءة الشعر دون ان تفقه كثيرا من معانيه ، ولكنها تتحسس في موسيقاه انسجاما مع روحها المتلهفة .. ويمضها هذا السجن وحراسه وتمضها براءتها فيه . ويتحول الصمت الموخز الى غليان دفين . وتعرض فدوى هذه الزاوية المظلمة من حياتها في اقصوصتها الشعرية الجديدة « هو وهي » التي لا تزال تعدها ولم تنشرها بعد قائلة :

وتعلمت كيف تختلط الثورة والبغض في دم المظلوم
وباعماقي التربص يخفيه هدوئي في صمته المسموم
أرقب اللحظة التي كم تطلعت اليها في شوقي المكبوح
لحظة الصمت والفرار الى افاق حريتي ودنيا طموحي

وينقلب الهدوء الساخط الى ثورة صاخبة محطمة تصورها فدوى في قصيدتها الثانية « من وراء الجدران » وتصب فيها بنغم حماسي فيه انبثاق ابداعي وعنف مرير ، تلك العاطفات الضاجة التي تكاد تحطم ضلوعها . وتوجه فيها ضربات معول محكمة الى تلك التعتات الاجتماعية المتزمتة ، وتركز فيها ثقتها بقوتها كامرأة ، وايمانها النبائي الذي لا يتزعزع بقيمة حياتها،ومعنى تواتر وجودها كانسان . فقد صدحت ضاجة :

بنته يد الظلم سجنا رهيبا  لوأد البريئات امثاليه
وكرت عليه الدهور وما زال
يمثل كاللعنة الباقيه
وقفت بجدرانه العابسات
وقد عفرت بتراب القرون
وصحت بها يا بنات الظلام
ويا بدعة الظلم والظالمين
لعنت ـ احجبي نور حريتي
وسدى على رحاب الفضاء
ولكن قلبي هذا المغرد لن
تطفئي فيه روح الغناء
الا كم براعم قبلي نمتها
لديك لعنات القدر
ذوت تحت اصفادها وانحنت
على ذاتها املا تنتحر
لعنت سواي امامك تعنو
وتخرسها غضبات الطغاه
ولكن مثلي ستبقى برغمك
بنت الطبيعة بنت الحياه
اغنى ولو سحقتني القيود
أغاريد نفسي واشواقها
تبارك لحني امي الحياة
فلحني من عمق اعماقها .

فدوى طوقان

وفي هذا المنعطف الكئيب من مجرى عمرها . عاد ابراهيم الشاعر المتعلم ليلقي طفلة تداخلت في قوقعة نفسها غما .. فوجه اليها عطفه كعادته ، ولعله تحسس في تخمرات ذاتها المراهقة كوامن عواطف اعتملت مرة في ذاته. وانضوت الصبية تحت جناحيه صامتة .. فالجراح عميقة والحساسية فائضة والبيئة لا تزال البيئة .. واراد ابراهيم ان يزيح عن روحها البائسه كابوس هذا الكبت الذي تعانيه ، وضغط تلك الثورة الداخلية الدخنة ـ فقرر كما رجته مرارا وهي ترتجف خوفا ان يرد مطلبها ان يعلمها الشعر كما يعلمه لطلابه ، وان يستزيدها العلم .. فاخذ يتلو عليها القصيد ويطلب اليها استظهاره لعل الشعر يكون صدمة تهز كيانها وتحول دخان روحها المحرقة الى نظم معقود ... واستظهرت اول ما استظهرت قصيدة لابي تمام من ديوان الحماسة في رثاء امرأة لاخيها . وكأنما ارادته الاقدار ان يكون اول نطق بها لشعرها الناضج هو رثاؤها في اخيها ... ونامت فدوى ليلة اشترت الدفتر والقلم لتخط عليه ربة تفاعيل الشعر وقد

ـ البقية على الصفحة ٩١ ـ

# فتاة وثورة وشعر

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٤ ـ

عانقت الاثنين في فراشها ، نضحت الوسادة بدموع فرحها ...

وانشغلت بالعلم الجديد عن نفسها واهلها : فهؤلاء يعيشون حياتهم يصخبون ويضحكون ويتزاوجون ، وهي تزداد احتكاكا بالوسط الادبي.. فقد انعكفت تقرأ ما يقدمه لها ابراهيم من دواوين الشعر ومن شعر له ، ومن قرآن يفتح لها مغاليق معانيه واعجاز بلاغته ، فصفا اسلوبها ، وتطاولت على العالم الخارجي بمطالعتها المجلات التي كانت تفد لاخيها .. وكم كانت تقف طويلا امام شعر لرباب الكاظمي ( وهي ابنة الشاعر العراقي عبد المحسن الكاظمي ) وتتطلع في صلاتها الخفية لو تفدو يوما شاعرة مثلها تنشر لها المجلات وتتكلم عنها الصحف ، وتحتل بذلك مركزا معينا في هذا الوجود ، وفي اسرتها الساخرة من علمها ، الهازئة من دنياها .. واخذ حلم الشعر الغامض يتحول حقيقة واقعة ... فقد نظمت فدوى الشعر .. وشجعها اخوها ابراهيم على مواصلة الدراسة في مناحيه . اذ احس فيه نغمة ونسمة نبوغ .. وعندما انتقل الى القدس ليعمل مديرا للبرامج العربية في اذاعتها رافقته . وعاشت في القدس وقد طرحت عن كتفيها غبار قرون من قيود فكرية واجتماعية : فلا حجاب على الوجه ، ولا قناع على القلب ، ولا قيد على الفكر ، وساعدها اخوها على تعلم اللغة الانكليزية ... ففرقت فدوى في رحاب الجمال : تغوص في ابداع القرآن ، وتغترف من المتنبي وشوقي ، وتتلمس طريقها جادة نحو الادب العالمي... فتضاعف قرضها للشعر ، ونشرت اولى قصائدها في مجلتي الثقافة والرسالة المصريتين باسم دنانير الفلسطينية منفسة عن عواطفها المكبوتة .

وانصرف عام القدس كحلم ، وافترقت عن اخيها ، وعادت الى سجنها تشكو اخاها فراقا مرا ... وعاشت في القصر الشامخ بين شعر تسكبه ، ودراسة للادب تتعمق فيها ، واهل راعهم انكماشها على ذاتها ، فاحكموا الحلقة حولها يتجسسون اخبارها .. وفي غمرة ضيقها هذه اي في سنة ١٩٤١ نعي اخوها ابراهيم اليها والى العالم العربي ... وشعرت فدوى بمعنى الكارثة .. وبفراغ هائل يكتسح كيانها : فلقد كان الضياء لعينها وقلبها ، واخترمه الردى واصبحت وحيدة تلجلج على درب الحياة لوحدها .. ورثته بما تحمل في طيات نفسها من كبت سابق ، وحب فائض ، وحرارة عواطف ، والم يأس .. اشتهر اسمها كشاعرة نابغة ...

ولكن ما قيمة شهرتها ، وهي تجوس خلالها تيه نفسي مدلهم قاس : فهي غريبة في هذه الدنيا بين قوم لا يفقهون اعماق فؤادها ولا معاني بؤسها :

وكان اقسى ما شجى نفسها ... وبعث الراعب من امسها
تدفق الظلمة في يومها ... في غدها المحروم في امسها
ظلمة عمر كل ايامه ... ليلى تدجى في مدى حسها
النور ؟ اين النور هل قطرة ... تسيل منه في مدى يأسها
من اين والاقدار قد جففت ... منابع الاضواء في نفسها

وتحس فدوى ان شخصيتها ثقيلة ، وان ذاتها قاتمة ، وان خطاها خائبة ذعورة ... وتتكتل عواطف الالم والحزن والتلهف الى المجهول ، والقلق في ثورة من يأس على الموت المتمثل وجودها الفارغ ، على حياتها الساكنة ، التي لا تحقق فيها فهما للكون يرضى لهفتها ، ولا تعطي فيضا للوجود يملأ نفسها ... فقد تكون لديها من سكونها المظلم الذي عاشته في حزنها ايمان بان الكون لا بد مرتكز على تبادل تعاطفي يربط الارواح بلحن موسيقي . وان النغمة الواحدة مهما شذبت من نفسها وهي نشاز اذا لم تندمج في اللحن الكوني العام .. فلا كيان اذن لمن يعيش حياتها منعزلا يجتر روحه ويدور حول عواطفه .. ونضج مع مقومات ارائها الجديدة ، ومع صدمة الحياة لها ، شعرها الوليد الفض فهو رغم قتامة موضوعاته يعمق مع الحزن معنى ، ويجزل لفظا ، ويرق لحنا .. واجمل ما يمثل هذه النزعة المستجدة في شعرها قصيدتها « ضباب التأمل » التي تتساءل في نهايتها بلهجة فيها جدية فلسفية ممزوجة بتهكم ، وبفكر فيه انفعال وواقع وبموسيقا فيها حرارةوتدفق عن معنى حياتها .. معبرة بالفاظ كلها قفار فراغ عن الخواء النفسي الذي كانت تشعر به امرأة ذلك العصر . وعن حنين تلك المرأة المصر الى الملء الحياتي ، والثقة الذاتية والابداع الخالق الخالد اكان عن طريق الامومة او العمل المبدع .

وتململت بقفاز قلبي ، في فراغ توحدي
نفس تسائل نفسها في حيرة وتردد
لم جئت للدنيا ؟ اجئت لغاية هي فوق ظني
املأت في الدنيا فراغا خافيا في الغيب عني
ايحس هذا الكون نقصا حينما اخلي مكاني
واروح لم اخلف ورائي فيه جزءا من كياني
ان كان غيري في وجودهم امتدادا للوجود
صور ستبقى منهم يحيون فيها من جديد
فانا سأمضي .. لم اصب هدفا ولا حققت غايه
عمر نهايته خواء فارغ .. مثل البدايه

وتمضي الايام ... وتحب فدوى غير اخيها .. فتتدفق نفسها من خلال الضباب ، وتتساقط الاقنعة الخانقة لذاتها ، وتندفع اناها العميقة مخضوضرة ندية لتحقيق الحياة .. ويتفجر منها نسغ شاعريتها المفكرة الصحيحة كالماء المتدفق ، رقراقة اللفظ ، مستقصية المعنى ، خالقة الصور ... وينسرح ادبها الحبيس الذي كانت تفوح منه رائحة الحجرة المغلقة نحو عالم اوسع ، وجو عاطفي انقى .. وهكذا ينكشف فجر شعرها الحار وتتلاطم فيه اشعاعات نفسها المضيئة في حركة مستمرة مندفعة ..

ويمكنني ان اقف قليلا هنا لاطل معكم على مجموع شعر فدوى لا كناقدة ادبية تشرح بمبضع حسها الجمالي الادبي وقواعد الفقه المتعارف عليها ذاك الشعر فتفصل غثه عن ثمينه وتوضح معاني جماله الجزئية ، وانما كقارئة عادية تعتمد على حدسها .. وتؤمن ان الجمال كل، ويتذوق ككل ويحس به عفويا دون اشارة من احد. وعلى هذا الاساس يصنف شعر فدوى بشيء من الصعوبة في ثلاث مجموعات : شعر الحب ـ او ما يسمى شعر الغزل ـ والشعر القومي ـ وشعر التأمل والفلسفة .. ويرى نقاد الشعر ان شعرها في مناحيه الثلاثة ما هو الا صورة صحيحة او مشوهة عن شعر اخيها ابراهيم... ومن الطبيعي ان تكون فدوى قد تأثرت تأثرا عميقا بشعر اخيها ... ولكنني اعتقد ان لشعرها شخصيته المستقلة البارزة وطابعه الخاص .. فهو شعر نسوي يتنفس عن احاسيس امرأة وعن اعماق امرأة بصدق ملتهب وصراحة محيرة . ومن هنا كان النبع غير النبع ، والفيض العاطفي اعمق جذورا في شعرها واشد تدفقا مما هو عليه في شعر ابراهيم وهو اكثر تحررا وانطلاقا وخروجا عن التقليد الشعرية والاوزان العروضية من شعر اخيها . فابداعيتها اصيلة عفوية

ومستعمقة . وانني لارى شبها اكبر بين وجدانية فدوى والشابي ممـــا بين وجدانية فدوى وابراهيم ، ولو انه يحس ان شعر الشابي اكثر غوصا في مكتنهات الحياة واتجاهات الفلسفة ، واكثر انسيابا مع الالفاظ والاوزان من شعر فدوى . وربما يتبرى قائل انها لا بد متأثرة بابي القاسم ولكن الواقع لا يثبت لنا ذلك اذ ان الاتصالات الثقافية لم تكن فـي تلك الاعوام كما نعلم على ما هي عليه اليوم وربما ان البيئات المتشابهة والاحساسات المرهفة ، يمكنها ان تخلق في ظروف معينة موحدة انغاما متماثلة .

وشعر فدوى شعر وجداني يتحلل فيه الجمال الى اطيافه الصوريـــة والموسيقية : ففيه جدة الموضوع وكثافة الفكرة وعمق الواقع واتساع افق الخيال وصدق العاطفة . وفيه من المستجدات تسلسل الحديث وعذوبته والقصة وطلاوتها،وعاطفية المخاطبة المباشرةوما تخلقمن مشاركات وجدانية. فشعرها قصة مشوقة فيها حركة وحياة ولها بدء ونهاية فالرابطة المنطقية بين مجموع قصيدها تكون بموسيقاها الخفية حجر الزاوية في جاذبيـة شعرها.ويلاحظ انها تعتمد علىالفكر ذاتها لخلقالصور لا علىالتشبيهالحسي لخلق الفكرة . وصورها اذا اخذتها من العالم الحسي حولها تجسد هذا العالم بدلا من ان تصوره . ويحس من سياق شعرها ان الفاظها تستوعب افكارها المليئة وعواطفها الحرى ، وانها تحمل ثقل معانيها بارتغاء وليونه ورضى ، وبذلك تساعد على توسيع افق صورها بدلا من تقليصها . وتستغل هذه الالفاظ بموسيقاها المنسابة اللامتواترة فتبثهـــا بين حنايا القصيد وتوحي عن طريق الهمس والرنين لون الصورة وعمق الفكرة ودقة المعنى . وتستخدم فدوى من التفاعيل وانواعها ما يضفي تجددا دائما على شعرهـا رغم قتامة الفكرة احيانا او ضآلتها . واكبر ما يميز قوافيها انسجامها مع موسيقا النفس البشرية وانسياباتها ولو انه من الصعب احيانا التمشي مع سرعة هذه الانسيابات والتآلف معها والاحساس بالانسجام اللحني فـي تركيبها . وان المبالغة في هذا التجديد اخذت تضعف من عبقرية موسيقا شعرها وتجعل المستمع يحس بتكلف في شاعريتها . وهذه الناحية اخذت تبرز مؤخرا في قصائدها وكأنما عفويتها قد نضبت .

ولا اميل الى تسمية شعر الحب عن فدوى بشعر غزل ، لانه لا غزل فيه بمعناه التقليدي المتداول الذي ينحني على جسم الحبيب فيحس انعطافاته ويتمايل مع تأوداته او ينكب على الوجه فيعانـق تقاطيعه وقسماتـه ، ويمجد ثناياه ولمحاته ... ففدوى في شعرها هذا تصف الحب كعاطفة انسانية كونية اكثر مما تصف من تحب ، وهي سعيدة بحبها شقية بـه اكثر من سعادتها بمن تحب او شقائها به . فشعرها غزل في الحب . وانه لعمل ثوري على ما اعتقد وتعتقدون ان تنطق فدوى حبيسة الحصـن الاقطاعي وسجينة التقاليد والعشيرة ، وابنة نابلس المدينة الصغيرة شعر الحب .. والحب كما نعرف عاطفة محرمة في مجتمعنا على المرأة فاذا شعرت بها عليها الا تبوح بها وانما تخنقها في الصدر لتتلاشى مع الزمـن والكبت ... وربما يتبادر سؤال الى الذهن كيف عرفت الحب وهي فـي سجنها وهل صدر يا ترى شعرها عن احساس واقعي صحيح بهـذه العاطفة ام كان وهما وخيالا ، وتشوقا ولهفة لما حرمت منه .. وتجيبكم فدوى بثورة صارخة وايمان دفاق في قصيدتها الجديدة ( هو وهي ) مخاطبة السائل واسمه عباس .

اي سجن لا يقحم الحب يا عباس ابواب سوه المغلقات
ابوسع السجون خنق الاحاسيس وقتل الحيـاة في الاعماق
من يصد الشلال عن سيره الكاسح ، عن اندفاعه الدفاق

وتظهر في شعر الحب عند فدوى صورتان : احداهما فيها صـــدق عاطفة ، وحسيه ورغبة في تحقيق الحياة بمعناها الارضي ، والثانية فيها عمق وخيال وتبتل ونقاء وتتسامى حتى تتحول الى حب صوفي كوني.. ولا يمكنني ان اجزم ـ اذ ان شاعرتنا تطبق شفتيها باصرار ولا تفصح ـ فيما اذا كانتا تشكلان تجربتين او تجربة واحدة ابتدأت بصورتها الارضية العادية ، ومنع المجتمع لاسباب ما من تحققها ـ وتعلمون هنا ان فدوى لم تبن بأحد ـ فتفرق المحبان ، وتسامت العاطفة واختلطت مع تجربة حبها الاخوي المراهق السابق ، ثم تصاعدت فتحولت الى حب مطلق بمثاليتـه ونقاوته وصوفيته ... وربما تتساءلون كما تساءلت من يكون ذلـــك الشخص الذي فتح امامها ابواب الهوى وصقل شعرها ، وملأ كيانهـا الفارغ .. وللمرة الثانية تحول فدوى الحديث .. ولكن يستدل من سياق الشعر انه غريب عن نابلس ـ او كان فيها ورحل عنها ـ وانه يعيش عبر الصحاري ولعله كان يعيش في مصر .. وانه شاعر موهوب تعلقت به تعلق الولهة ، وراسلته مراسلة المحبة ، وبقيت على عهده رغم العوائـق التي وقفت في طريق اتحادهما تعيش له ومنه .. وان كان يبدو ان تعلقهبها كان تعلق رجل بامرأة ، وتعلق شاعر يحنو على شاعرة ، ويرى في حبهـا كأمرأة او كشاعرة غذاء لانانيته وشعره .

وفي قصائد فدوى الحبية هذه تعبر لاول مرة في حياة مجتمعنا المتزمت المرأة عن عواطفها المباشرة عن طريق نفسها لا عن طريق الرجل وبشكـل صريح امين وصادق وفيها تنبثق فلسفة فدوى الخاصة عن الحب والجمال، وايمانها ان الحب هو سر الكون وسبب تدافعه الحركي .. وهو مبـــدع الجمال ومعانيه ومالىء الوجود ... وهو الذي يوزع قطرات هذا الجمال على جدب الحياة فيحولها خصبة زاخرة ... فليس الجمال اذن هـــو القيمة المطلقة التي تبعث الحب في كيان الكون وانما الحب هو الـذي يخلق كل القيم المطلقة ويدفعها متدفقة نحو تحقيق ذاتياتها .

افي الحب قوة خلق تحيل المحبين كيف تشاء

ترى ؟ ما الهوى ؟ اهو روح الحياة ؟ ترى ما الهوى اهو سر البقاء

وتترقرق في قصائدها الوجدانية انسيابات من الوجد الصوفي تتغلب عليها بعد حين . واجمل قصائدها هذه « الاعماق » وفيها تعرض بواقع رائع وعفوية مؤثرة ، والفاظ تحمل عبء معانيها ، وقواف منسجمة مع ارتفاع موج العاطفات وهبوطها ، قصة حبها ووحدتها القاتلة . ثم ذلـك البعث والاشراق الفجائي اللذين عما نفسها فاحالاها جمالا وخلقا ... ورغم انه من الصعب في شعر فدوى عامه تقديم مقتطفات لان قصيدها لا ينسجم الا ككل ، ولان جماله في تلاحق صوره ومنطقية عرضه فانني سأحاول ما امكن عرض مختارات لن تمسه مسا في الصميم :

سرت وحدي في غربة العمر ، في التيه المعمى السحيق
لا ارى غاية لسيري ، ولا ابصـر قصدا يوفي اليه طريقي
ملل في صميم روحي ينساب وفيض من الظلام الدفوق
وانا في توحشي ، تنفض الحيرة حولي اشباح رعب محيـق
سرت وحدي في التيه ، لا قلب يهتز صدى خفقه بقلبي الوحيد
سرت وحدي لا وقع خطو سوى خطوي على المجهل المخوف البعيد
لا رفيق لا صاحب ، لا دليل غير يأسي ووحدتـي وشرودي
وجمود الحياة يضفي على عمري ظل الفناء .. ظل الهمود
والتقينا ... لم ادر اي قوى ساقتك حتى عبرت درب حياتي
كيف كان اللقاء ؟ من ذا هدى خطوك ، كيف انبعثت في طرقاتي
لست ادري . لكن رايتك روحا يوقظ الشوق في مسارب ذاتي
ويذري الرماد عن روحي الخابي ويذكي ناري ويحيي مواتي

حدقت مقلتان في ... والامي يغشي ضبابها مقلتيه
لست ادري ما استجلتاه ولا ما رأتا خلف وحدتي الابديه ..
يا لعينيك ! أي نفضة بعث اوجدتها عيناك في اعماقي
فاذا بالحياة عارمة النبض ، بفيض الحنين ، بالاشواق
واذا بالجمال يعكس الوان رؤاه على مدى آفاقي
واذا بي في ظل حب عظيم معجز السحر ، مبدع ، خلاق ...
ومضت بي الايام .. لا انا صرحت ولا لهفتي الحيية تبدو
كم وكم راح يحتوينا مكان وانا صبوة ثورات وجدد
وبقلبي السعيد شيء كعنف الموج يطغى بناره ويمسه
ومضت بي الايام ... والزمن العجلان يجري كالهارب المجنون
وسكوني ما انفك يرخي سدولا فوق رعشات قلبي المفتون
وتلفت فجاة وبعمقي، نشوة السحر والهوى المفتون
واذا قلبي المرنح اشلاء على راحة الوداع الحزيـــن
وافترقنا وملء نفسي ـ ولو تدري ـ احاسيس هائمات حيارى
وهواي المكبوت يجهش في صمت .. وتهمي دموعه اشعـارا

ورافق تأجج فدوى العاطفي ذلك ، وشوقها اللاهف للمسافر البعيد ، ثورة على قيود تفكيرها الجامد ، وعاطفتها المكبلة ... فخرجت من تحفظهـا الروحي الناسك بعد صراع مع ذاتها ، وتلونت عاطفتها المثالية بلون ارضي ، وغدا شعرها الغزلي اكثر حسية في اللفظ، واكثر تحررا في نوعية العاطفة واكثر انصبابا على من تحب . ويظهر هذا جليا في قصيدتها المحببة اليها « غب النوى » فتقول :

وفي غمرات الذهول العميـــق تطالعني القـــامة الفارعـه
فأشخص ، ثم اغض حيـــاء واكسر من لهفتي الجائعـــه
وابدي جمود الخلي كأن لـــم ترج دمي الطلعة الرائعـــه
وتنهب عيناك وجهي وقد عـرا مهجتي منهمـا ما عـــرا
فيمحى بعيني كـــل الوجـــود ويمحى بعيني كـل الـــورى

ولكن رغم انطلاقها وسخريتها بالعرف والتقاليد كما قالت في بعـض قصيدها : « واغني الحياة اشواق روحي ... اتحدى السجان ، اسخر بالعرف بما شاءت التقاليد حولي » فان حياتها السابقة ضمن الجـدران وانعزالية نفسها كانت تحبب اليها دائما فكرة الهوى المكتوم . وكانت تعتقد ان حياة الحب مرهونة بعدم البوح به :

فسحر الهوى هو هذا الغموض وسحر الهوى هو هذا الخفاء .

وقصيدتها « الى صورة » لتعبر عن هذا المعنى تعبيرا رمزيا مستجدا وعميقـا .

ويلوح لفدوى بعد طول فراق عمن تحب ، وبعد عذاب انتظار ، حلم لقاء مع شاعرها ، فتسكب قصيدتها الرائعة « قصة لقاء » وهي احدى ذرى شاعريتها . والقصيدة لا تترجرج فيها الفكر ، وانما تهدر فيها العاطفة وينساق الوزن وتضج حنايا الشعر بموسيقا « جازية » عنيفة تصور ما يمثل اللقاء لفتاة مصفدة بالتقاليد ، تسير مع خفر الهوى وسحر معانيه وتتلهف للمجهول فيه :

وكان الغد الحلو يا شاعري ...
وقلبي فحيا نزق ثائر يعد خطا الزمن السائر
ويرقص في خفة الطائر
وأقبلت ... روح هوى خافقا ... يلاقيه درب ويطويه درب
احـث خطاي وملء كيـاني رؤى لاهثـات وحـب
وهل انا الا خيال يشـــب وهل انا الا شعور وقلـــب
وكان يصور قلبي اللقـاء وما سيجيء .. وما سيكون
وكيف ستلقى العيون العيون
وكيف سيصرخ فيها النداء نداء الحنين .. نداء السنين
فنخفنه تحت خفض الجفون
وكيف سترجف أشواقنا وكيف سترعش كف بكف
وقبلي وقلبك معتنقان على راحتينا بشوق ولهف

ويفشل اللقاء .. ويعتب الشاعر على فدوى صمتها وضعف حبها مذكرا اياها بحبه ولهفته .. ولا اذكر انني قرأت في شعرنا الحديث ابياتا فيهـا عفوية وعتاب خفي على عتاب بارق مما ردت به فدوى على شاعرها فـي « الصدى الباكي » :

شاعري لا تقس فـي عتبك ، لا تظلم وفائي
انا حسبي قسوة الدنيا واعنات القضاء
آه لو تدري بالامي بمأساة شبابي
لبكى قلبك وارتج لياسي وعذابي
انا لم انس هوى فجر الحاني وشعري
انا لم انس هوى رمت به ايام عمري
انا انسى ؟ كيف ؟ لا يا حلم قلبي يا نجيي
لا ومن الف روحينا على الحب النقي
أنت روح طائر يشدو على كل الغصون
يرتوي من خمرة الحب ومن نبع الفتـــون
وانا روح سجين قصت الدنيا جناحي
نغمي ينبيك عني عن مدى عمق جراحي

ويتحول حب فدوى الى أثيرية شفافة ، وتغرق فيه حتى يغمرها وتغمره .. ويتحول المحب الى طيف رقراق يملأ صوفية روحها وانطلاقها :

ومن عجب انني لا اراك ، ولكن احسك روحا لهفا
يحن الي ويحنو علي ، وينساب حولي هنا او هنا
اذا ما صحوت ، اذا ما غفوت ، اذا ضج يومي وليلي سجا
رقيقا شفيقا كنور الصباح ، زكيا نقيا كقطر الندى

ويغدر الحبيب .. وتغيض مع هذا الغدر ينابيع المنى من قلـب الشاعرة ، وتتحطم على صخر الواقع مثلها ... وتعود لقى مهملا .. وتشعر هذه المرة ان عواطفها المتقدة آخذة بالانطفاء ، وانها ستعود الى ارضهـا الباردة ووحدتها الخاوية لا قلبا حارا يتلهف الى مجهول الحب ، وانما قلبا ممزقا يبكي تحت ثلوج الانفراد القاسية آماله الذاوية . وتغالب فدوى بكل ما لديها من شباب ، ومن تشبث بالحياة ، ومن ارادة كالحديد هـذا الميل الى الهمود العاطفي ... وتعاند مرة اخرى بثورة طافحة ونقمة عارمة موجة الخبت التدريجي لحياة ذاتها .. وقصيدتها الرمزية « نار.. ونار » لهي اجمل ما قدمت في هذا المنحى .. والمقطع التساؤلي التالي يوضح ذلك الصراع النفسي الحقيقي بين شباب يأفل وخريف يبدد :

واسأل نفسي : اين يغيب
شرار اللهيـب
وهل تحزن النار اذ ينطفي

وتخاطب النار قائلة :

ايخمد مثلك نار شعوري
غدا ويؤول لمثل هذا المصير
أيفشى اوراي رماد السنين
ايهمد قلبي كما تهمدين
لماذا ؟.. اتدرين ام انت مثلي

أسيرة جهل

اجيبي .. اجيبي ... الا تسمعين ؟

وفي سنة ١٩٤٨ تقع مأساة فلسطين ونكبة العالم العربي .. ويموت الوالد المجاهد ، وتصبح الدار بالوافدين اليها ... وتعيش فدوى ثلاث ظلم : كربة وطن فقدت ارضه وتشرد اهله ، وكربة بيت اختزم الردى ربه ، وكربة حب فقد نغمه .. فتتسلل شاعرتنا من فردية عواطفها وانعزالية روحها لتندمج بكليتها مع محيطها ... واحست لاول مرة بتعاطف مليء مع ما يعتلج في اعماقه ، وبالحياة تنصب دافقة ثائرة في اضلعها . وينتفض شعرها القومي ويتوهج ، ويطفح بالالم واللوعة ، والحسرة والنغمة كما طفح بها جميعا في السابق شعر ابراهيم .. لقد تفاعلت مع مأساة امتها تفاعلا صهر ذاتها وانساها حبها .. واهاجها في هذه المأساة موقف بني امتها العرب من موطنها كما اهاجت اخيها في الماضي الحزبية البغيضة والتفسخ القومي ، فصبت حمما من نفسها على قومها وعلى الدول العربية . وقصيدتها « بعد الكارثة » لتنم عن النضوج في الوعي ، وايمان متغلغل بالعروبة وقيمها ، وفهم عام لمجرى الاحداث وتطورها . واجمل ما في قصيدها عنف الثورة النفسية في البدء ،وتعاليها ضاجة محطمة ... ثم خفوتها التدريجي تحت نسمات الامل ، وعمق الايمان ببني قومها .. وقد استخدمت فيها قافية سكنت ميمها وكأني بها تعبر بهذا التوقف الفجائي بعد دفق عن انسياب الحركة التحررية وتوقفها ، وعما تكنه اعماقها من اندفاع وجموح :

يا وطني مالك يخنى على روحك ... معنى الموت معنى العدم
امضك الجرح الذي خانه ... أساته في المأزق المحتدم
واخجلتنا .. حتام اهواؤهم ... قلوبهم دون البلاء الملم
هم الانانيون ... قد اغلقوا ... قلوبهم دون البلاء الملم

وترتفع موجات النقمة متلاحقة :

يا هذه الاقدار لا ترحمي ... فرائس الضعف بقايا الرمم
بالعول المحموم اهوى على ... تلك الجذوع الناخرات الحطم
واكتسحي انقاض هذا الحمى ... من كل ركن خائر منهدم
اكتسحيها وانفضي امتي ... مما علاها من رماد القدم

وتخفت الاصوات العنيفة وتتهافت لتعطف وتلين :

ستنجلي الغمرة يا موطني ... ويمسح الفجر غواشي الظلم
فالجوهر الكامن في امتي ... ما يأتلي يحمل معنى الضرم

وتمتليء نابلس باللاجئين ، وتعج فجاجها وشعابها بمخيماتهم الممزقة .. .. ويعج قلب فدوى بالملهبات الحرى التي تأكل ذاتها وتصغي بحرقة لانات الثكالى وصرخات اليتامى ظامئة لا الى المادة والخبز وانما لارض الوطن . وتتجاوب هذه النداءات مع دفقات قلبها ، وتتمثل آلام شعبها الشريد في دمها فتلفظها شعرا عبقري الصور ، خفاقا بالحياة ، صاخبا بالحقد على العدو ، ضاجا بالنقمة ... واجمل صورتين قدمتهما فدوى هما « نداء الارض » و « عيد لاجئه » وفي القصيدة الثانية تقص علينا فدوى بنبرة اسى ودمعة سخط احاسيس لاجئة اطل عليها عيدها ... فتذكر وهي قابعة كالشبح بين الخيام المهلهلة حياتها السابقة ورفهها الماضي واجمل مقاطعها المقطعان الاخيران حيث تندفع شاعرتنا بحماسها منبهرة الانفاس متلظية العبارة ، محمومة العاطفة .. فتقول مخاطبة اللاجئة :

اختاه !

واليوم ماذا اليوم غير الذكريات ونارها
واليوم ماذا غير بؤسكن وعارها
لا الدار دار ، لا ، ولا كالامس هذا العيد عيد
هل يعرف الاعياد او افراحها روح طريد
عات تقلبه الحياة على جحيم قفارها
أختاه !
هذا العيد عيد المترفين الهانئين
عيد الالى بقصورهم وبروحهم متنعمين
عيد الالى لا العار حركهم ولا ذل المصير
فكأنهم جثث هناك بلا حياة اوشعور
اختاه لا تبكي ! فهذا العيد عيد الميتين

وفي سنة ١٩٥١ تغادر فدوى وقد ملأتها النكبات ، وغدت روحها الما بحتا ارض الوطن الى مصر . فتستقبل كشاعرة فذة ... وتتفتح مع الحدب الجديد في نفسها الرغبة في الحياة والشوق اليها كما اشتاقتها في صباها ... وتتلهف على مصر ولعل فيها حبها .. وتصور في قصيدتها الى مصر هذا النفم الجديد المشرق في حياتها وشوقها الى الدنيا بافراحها وتعرض احاسيسها هذه في بعض مقاطع هذه القصيدة بصورة بثية هي من ابدع ما كتبت :

يا مصر بي عطش الى فرح الحياة .. الى الصفاء
يا مصر نحن هناك اموات بمقبرة الشقاء
لا يطمئن بنا قرار ... لا يعانقنا رجاء
لا شيء الا ضحكة الهزء المرير على المباسم
كالضحكة الخرساء قد يبست على فك الجماجم

وتعود شاعرتنا الى نابلس وكأنما استهلكت الاحداث المتواترة على نفسها حدة عواطفها ... فهدأ ذلك اللهب العاطفي لتبعث من اعماقها لهفتها العقلية نحو تفهم اسرار الكون فعادت فدوى الى الاندماج في عزلة الروح باحثة هذه المرة عن ينابيع الحياة الخفية التي يمكن ان تقدم لنفسها الهدوء والاستقرار الذاتيين بعد تلك الثورات وذاك الجموح .. وركنت الى تفكير تساؤلي عميق ينساح الى ثنايا الوجود .. وخطت تفكيرها هذا شعرا تأمليا يرفعنا عن مستوى العواطف السطحية الفواشه الى آماد الكون والانطولوجيا ... ففيه تدخلنا فدوى بموسيقا مشوقة مجاهل الفكر وتيه الحياة .. ويشعر القاريء في طيات ابياتها التأملية هذه لهفة علمية متأججة وقلقا روحيا مضنيا لا يجد رداء، وتذبذبا نفسيا مقضا فيه بقايا ثورة وملامح يأس ، وحنين معرفه ، ويبدو شعرها في هذه الفترة لبعض النقاد رمزيا غامضا يضعف من عبقريتها ... ولكنني اقول ان شعرها هذا مع قصيدها الحبي يشكلان لجة نبوغها وذروة شاعريتها .. ففيه انطلاق وفكر ، واستقصاء وتحر ، وانسانية وجمال ، ويأس وصراع ، ورغبه اكيدة ملحة في الخلود على الارض قبل السماء ... واجمل ما فيه تلك التساؤلات الشكية عن المفاهيم الميتافيزكية التي لقنها في حياتها : كالموت والبعث ، والخلود ، والعدل الالهي تلك التساؤلات التي تتركنا في غسق من امرنا اي لا هو بالمنير ولا هو بالمظلم ، وبذلك تفتح امام الشعر باب الفلسفة العميق :

ليت شعري ، ما مصير الروح والجسم هباء
اتراها سوف تبلى ويلاشيها الفناء
ام تراها سوف تنجو من دياجير العدم
حيث تمضي حرة خالدة عبر السدم ؟
عجبا ما قصة البعث وما لغز الخلود
هل تعود الروح للجسم الملقى في اللحود
ذلك الجسم الذي في الارض قد حال ترابا
او تهوى الروح بعد العتق عودا للقيود ...

حيرة حائرة ... كم خالطت ظني وهجسي
كم تطلعت وكم ساءلت من اين ابتدائي
ولكم ناديت بالغيب الى اين انتهائي

وتتمايل شاعرتنا تحت وطأة اليأس والشك : اذ ان ثقافتها العلمية رغم نضوجها مع مرور الزمن عاجزة عن اجابتها بوضوح على شكها وخبرتها في الحياة تزيدها ريبه ولهفة .. وتحاول بصمود ان تشق طريقها عبر ظلام الارض القائم ونكباتها المتتالية وظلمها العاني وان ترى في هذا الوجود الارضي ورودا خلال شوكه الذي ادماها كانسان .

وتنتقل بين غرب الى استوكهولم وشرق الى الصين الشعبية ولكن جوابا مقنعا لا يصلها عبر سحب تفكيرها المعتكرة .. وتتحسس فدوى وقد مالت بها السن الى النضوج ، وملاها اكتفاؤها العاطفي ومللها من الكفاح الشكي.. انها قد تنسمت الحقيقة ، حقيقة هذا الوجود الذي ليس الا ذلك الحب الانساني الشامل الذي عاشت طيلة حياتها تبحث عنه وهو قائم في الواقع بين ضلوعها يحرق ذاتها ، ومنبث في الكون حولها يشع في جنباته الحياة والجمال .. وتؤمن اخيرا بالخلود وتطمئن بعد ان تدرك وحدة الوجود الى انها قد وجدت ذاتها .. والمقطع الاخير من قصيدتها الجديدة « وجدتها » التي ستسمي ديوانها القادم بها اي وجدت نفسها الضالة يعبر عن منحاهاالجديد:

وجدتها ... يا عاصفات اعصفي
وقنعي بالسحب وجه السما
ما شئت
فان انواري لن تنطفي
وكل ما قد كان من ظل
يمتد مسودا على عمري
يلفه ليلا على ليل
معنى ، ثوى في هوة الامس
يوم اهتدت نفسي الى نفسي ..

وتنهال بصوفية لاعجةوحب مضطرم على هذا الكون المشرقالذي ليس الا ذاتها وحبها فتطلب الفناء فيه اذ ان فناءها فيه بقاؤها ،ومشاركتها للطبيعة خلودها وهكذا تشبع في امتداده اللا نهائي حرمانها السابق من الحرية والانطلاق وتشدو مترنمة :

اواه لو افنى هنا فى السفح .. في السفحالمديد
فى العشبفيتلك الصخور البيض فىالشفقالبعيد
فى كوكب الراعي يشع هناك في القمر الوحيد

ويخفت صوت فدوى الهامس ..الحييلتلاشى في نغم صادح وجد نفسه ينسجم ويلتحم مع لحن الكون الابدي (١)

دمشق — ليلى صباغ

(١) محاضرةالقيت فيالندوة النسائية بدمشق